# هَيْمَنَةُ الهُوِيَّةِ الأَسْلامِيَّةِ وَخُصُوصِيَّتُها
## (دِراسَةٌ فِي ضَوْءِ القُرْآنِ الكَرِيمِ)

طلال فائق الكمالي
العتبة الحسينية المقدسة

### فحوى البحث

يراد بفكرة البحث: (هيمنة القرآن الكريم على بقية الكتب السماوية) مجموعة من الأسس والقواعد والأدلة النافذة في حكمها على التشريعات السماوية جميعها. وهو مصداق قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [سورة المائدة: ٤٨]. وهذه (الهيمنة) انما تحققت بفعل هيمنة الله–تبارك وتعالى –على المخلوقات ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ [سورة الحشر: ٢٣].

وقد ركز السيد الباحث على مسألة قبول الآخر و عدم اضطهاده وتغييبه وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة مطالب مذيلا بقائمة طويلة للمصادر اضطررنا لاختصارها.

توطئة:

إن مفهوم هيمنة القرآن الكريم على بقية الكتب الإلهية إنما يراد منه: مجموعة من الأُسس والقواعد القرآنية والأدلّة الـمُعزّزة لها النافذة في حكمها على جميع التشريعات السماوية والأرضية، التي يُرجع إليها لتدعيم مبدأ الخير الذي يرجوه الإنسان في تلبية حاجاته كافّة، إذ لا يخفى أن لهيمنة القرآن الكريم هيمنة ذاتية وموضوعية تنتهي الى هيمنة الشريعة الإسلامية بلحاظ أن الكتاب أحد أركانه الرئيسة، بيد أن محور البحث يكمن بالإجابة عن سؤال مؤدّاه أيلزم بحكم هيمنة الكتاب والشريعة أن يكون النبي المرسل بالرسالة المهيمنة مهيمناً على غيره من الأنبياءﷺ أم لا يلزم ذلك؟. أو يجب أن يكون ذا خصائص تميّزه عن غيره من الأنبياء والرسلﷺ بالأداء أو بالرتبة أو بالتسديد الإلهي.

ثمّ السؤال عن إمكانية لزوم أن تكون هوية الانتساب إلى الشريعة المقدّسة لها خصيصة الهيمنة تبعاً لهيمنتها وهيمنة كتابها؟.

وقبال ذلك سنحاول الإجابة على الرؤية القرآنية (للآخر) في ظلّ الهوية الإسلامية، وعن حدوده في هدي مضامين مكوّنات الكتاب المهيمن وأحكامه؟.

وقبل البدء بالإجابة عن كلّ الأسئلة المذكورة آنفاً وجدتني ملزماً بتسليط الضوء على بعض المفردات التي يرتكز البحث عليها ومنها ما يأتي:

مفهوم الهوية الإسلامية:

وردت «الـهُوِيّة» في معجمات اللغة مضمومة الهاء، نسبة إلى الضمير «هُوَ»، ويراد بها الماهية بحسب تعريف الجرجاني لها وهي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق[1]، وقد وافقه على هذا صاحب تاج العروس تماماً[2].

وقد بيّن الجرجاني معنى تلك الماهية بشكل أكثر تفصيلاً بقوله: (الهوية هي الأمر المتعقّل من حيث امتيازه عن الأغيار)[3]، وقد قيل إنها (ما به الشيء

(١) ظ: علي بن محمّد الجرجاني، التعريفات: ٢٥٧.

(٢) ظ: الزبيدي، تاج العروس: ٢٥/ ١٧١؛ ٣٩/ ١٢٣.

(٣) علي بن محمّد الجرجاني، التعريفات: ١٩٥.

هو هو باعتبار تشخّصه)[٤]، ولذلك فإنّ (هويّة الشيء تعيّنه ووحدته وخصوصيّته ووجوده المتفرّد)[٥].

واستعملت الكلمة حديثاً للبطاقة التي يُثْبَت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وقد ورد هذا الاستعمال في المعجمات الحديثة فهي تعني (إحساس الفرد بنفسه وفرديّته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكيّاته وأفكاره في مختلف المواقف)[٦].

وتُستعمل كلمة (هُوية) في الأدبيات المعاصرة للتعبير عن خصيصة المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقة لمثيله[٧].

يتّضح من كلّ ممّا تقدّم أنّ الهوية بالرغم من تعدّد تعريفاتها لا تخرج عن كون المراد منها: خصيصة الشيء وجوهره الذي يتميّز به عن غيره أو عن الآخر.

(٤) زين الدين المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف: ١٤٤.
(٥) التهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ١٠١٠.
(٦) أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة: ٣/ ٢٣٧٢.
(٧) الموسوعة الفلسفية العربية: ١/ ٨٢١، معهد إنماء العربي، بيروت، ١٩٩٥م.

من هنا عُرِّفَت الهوية الإسلامية بأنّها: (الإيمان بعقيدة الإسلام، وتعزيز الانتماء إليه واحترام قيمه الحضارية والثقافية، وإبراز شعائره والتمسّك بها، والقيام بحقّ الرسالة)[٨]، وفي هذا التعريف نظر لأنّه بيّن مكوّنات الهوية الإسلامية أو مستلزماتها لا ماهيتها، إذ إنّ الهوية الإسلامية مصطلح يدلّ على حقيقة ذاتية الإسلام التي (تشكّل محور استقطاب للأُمّة أو للفرد وتميّزهما عن غيرهما)[٩]، وهذا يعني أنّ الهوية الإسلامية تقوم على بعدين[١٠]:

**الأوّل**: البعد الفردي الذي يُعبّر عن الكيان الاختياري للإنسان، وهو ما ينطوي على مضمون قيميّ مبدأيّ، يتضمّن تعريف الإنسان بذاته، وبأهدافه في الحياة، وبالمعايير التي تشكّل المرجع لديه وتضبط دوافعه.

**الثاني**: البعد الجماعي الذي يعني

(٨) خليل نوري العاني، الهوية الاسلامية في زمن العولمة الثقافية: ٤٥.
(٩) شريف محمّد جابر، الهوية والشرعية دراسة في التأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية: ٨.
(١٠) ظ: المصدر نفسه: ٨.

الانتماء إلى (جماعة)، وهو يتضمّن تعريف الإنسان بذاته من حيث هو منتمٍ إلى جماعة (أُمّة الاسلام).

وكلّ من البعدين يعطي للهُوية الإسلامية سمات تميّزها عن الهُويات الأُخر ومن أهم تلك السمات[11]:

١. أنّها تعطي الفرد والأُمّة مقوّمات البقاء والحفاظ على الخصيصة من دون ذوبان في الثقافات والهويات الأُخر.

٢. أنّها تستوعب حياة الفرد المسلم في مجالاتها كافّة فهي محدّدة الوظيفة، واضحة المعالم بيّنة الأهداف في الحياة الدنيا والآخرة.

## الآخر:

لقد تعارف في الأوساط الثقافية المعاصرة استعمال مفردة (الآخر)، إذ تبنّت الفلسفة الأوربية الحديثة محاور متعدّدة منها (الأنا) وبهذا «كان كلّ وجود غير وجود (الأنا) هو (آخر(بالنسبة لها، وبالتالي فعلاقة التغاير هي علاقة بين الأنا والآخر... و (الأنا) لا معنى لها سوى أنّها المقابل، لـ(الآخر) تقابُلَ تعارض وتضادّ»[12]، من هنا نستطيع أن نقول إنَّ المفهوم يُنظرَ إليه بالتعارض والمغايرة على أساس الرؤية الفلسفية وكان تعريف الشيء بضدّه.

في حين عرّفه آخرون من وجهة نظر معرفية لسانية بأنّه «عنصر اساس في فهم وتشكيل الهوية، حيث يقوم الناس بتشكيل أدوارهم وقيمهم ومنهج حياتهم قياساً ومقارنةً بالآخرين كجزء من منهجية التفاعل البيني التي لا تحمل بالضرورة معان سلبية»[13]، وعُرّف (الآخر) أيضاً بأنّه «هو كلّ إنسان مختلف، سواء كان هذا الاختلاف شكلياً أم ضمنياً فهو اختلاف من ناحية الشكل وصفات فيزيولوجية -بنى جسمانية أو

(١١) ظ: خليل نوري العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية: ٤٦.

(١٢) محمّد عابد الجابري، مفهوم الأنا والآخر: الموقع الكتروني // :http www.aljabriabed.net /maj-moiautre.htm11.

(١٣) الآخر: الموسوعة الحرّة: ويكيبيديا موقع إلكتروني: https: // ar. wikipedia. /org / wiki

ضمني يعني (فكرياً -سياسياً -دينياً- عرقياً)»[١٤].

وبالنظر لما عُرض من تعاريف (للآخر) نجد هذه التعريفات قد ابتعدت عن الوسطية إفراطاً وتفريطاً، فقد وصل الأمر ببعضهم إلى حدِّ التعارض والتناقض والتضادّ أحياناً، ووصلت الحال ببعضهم الآخر إلى حدِّ البعد اللساني اللغوي الذي يفضي إلى تشكيل الهوية بمعناها المحدود فحسب؛ في حين نجد (الآخر) بالمعيار القرآني- من وجهة نظر الباحث -رؤية كونية كلّية يتّسع بعدها الفكري لتستوعب كل ما دون الذات المسلّمة، أو هو الإنسان المخالف لرؤى الإسلام وعقيدته، أي غير المسلّم من الديانات السماوية الأُخر، إذ بذلك تُحدَّد الهوية الإسلامية نفسها وخصيصتها وما يميّزها عن الآخر ونجد في آيات القرآن الكريم عامّة فضلاً عن باقة آية الهيمنة كثيراً من الإشارات إلى بيان هوية الآخر من جهة وآلية التعايش معه وقبوله عملياً، يقول تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، إذ نستفيد من الآية المباركة وجود سياسة قرآنية دقيقة في قبول الآخر والتعامل معه، ولهذا لم نذكر في منطوق مفهوم (الآخر) معنى التضادّ والتعارض بين (الأنا) و(الآخر) لا من قريب ولا من بعيد لأن هذا المضمون لم يُشر إليه النصّ القرآني مطلقاً، على الرغم من وجود الاختلاف الفكري والعقدي بين المسلم وغيره؛ قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾[سورة الإسراء: ٢٠] بل دعت الرؤية القرآنية والشريعة الإسلامية إلى إحياء القواسم المشتركة بين المسلم والآخر -وهذا ما سنثبته في محاور هذا المبحث -والانفتاح سلوكياً للتعايش في مجالات الحياة كافّة، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ

(١٤) الآخر، حسام سليمان: موقع الكتروني: www. ssrcaw. org/ ar/ print. art. asp?aid=150963&ac=2

فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة: ٨].

من خلال كلّ تلك الاستفهامات والإثارات والرؤى القرآنية سنثبت أنّ شريعة الإسلام نظرت إلى (الآخر) نظرة سماوية معيارها -الأوّل والأخير- الاعتقاد بوحدة الدين وتعدّد الشرائع على صعيد زمن الوحي لتنتهي عند الشريعة الخاتمة والمهيمنة بالمآل.

وما يبتغيه الباحث من (الآخر) هو (الآخر الديني) أو الآخر ممّن يعتقد بالشرائع السماوية غير شريعة الإسلام بلحاظ أنّ موضوعنا يخصّ هذه الفئة، على الرغم من أنّ البحث يمكن أنْ يستوعب مَنْ هو خارج هذه الدائرة بحكم أنّه سيعرض أُسساً كُلّيةً اتّصفت بها شريعة الإسلام لتستوعب كلّ البشرية بغض النظر عن انتماءاتهم العقدية.

## المطلب الاول

## خصيصة نبي الاسلام ﷺ

لا شك في تسالم وجود التباين النسبي بين التشريعات الإلهية، إذ يتجسّد ذلك التباين متأثّراً ببوصلة الإطلاق والنسبية صعوداً ونزولاً من جهة، وتباين ظروف أُممها من جهة أُخرى، وهذا التباين سيؤثّر طردياً على مضامين ومفردات كلّ شريعة قياساً بالشرائع الأُخر، ومن ثمّ تتفاضل هذه عن تلك.

وعليه نسلّم بتفاضل الشريعة الخاتمة ورفعة مضامينها بحكم أنّها المتمّمة والجامعة والناسخة لما قبلها من الشرائع، فضلاً عن قدرة الناس لتقبُّل الشريعة ونضج العقل المعرفي لتحمّل مسؤولية تكاليف السماء واستعدادهم لذلك، علاوة على ما ذكر من أسباب لهذا المحور سلفاً.

### تفاضل الأنبياء وأثره في بناء الأُمّة:

إنّ التفاضل في الشرائع جاء بموجب أسباب متعدّدة منها أثر هذا النبي عن ذاك في تعزيز الإيمان في عقول الأُمّة وقلوبها ووجدانها، وهذا الأثر ينمّ على قدرة الرسول ﷺ وملكاته وسعة قابليته التي أهّلته ليكون رسول الله تعالى لشريعة من الشرائع على الرغم من كثرة أنبياء الله تعالى ﷻ ، فاصطفاء

الله لأُولي العزم من الأنبياء عليهم السلام -على سبيل المثال -مبني على أنّهم «أُولوا الجد والثبات والصبر»[١٥]، ولهذا خاطب الله رسوله الكريم صلى الله عليه وآله ووصّاه بالصبر لقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥].

إنّ تفاضل الأنبياء له الأثر الواضح في بناء الأُمّة وفي تثبيت موضوعاتها التي تتأثّر الشرائع السماوية بموجبها، ولهذا صرّح النصّ القرآني بحقيقة هذا التفاضل وشرعيته؛ بل فُرِّق عبر آيات متعدّدة بين الرسول والنبي بوصفه مرتبةً من مراتب التمثيل الإلهي لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [سورة الحج: ٥٢]، فالآية وغيرها من الآيات المباركات تُفيد التفريق بين مفردتي الرسول والنبي باعتبار أنّ واو العطف تقتضي التغاير دلالةً، فضلاً عن وجود التفاضل بين المرتبتين «كما أنّ دلائل عديدة تشير إلى الاختلاف من وجوه متعدّدة من ضمنها عموم شريعة الرسول وخصيصة نبوّة النبي، ومن ضمنها أيضاً أنّ الرسول من له شرع خاصّ به مستقل عمّن سبقه أو مكمّل له، والنبي لا يأتي بشرع أصلاً... كما أنّ التبليغ وعدمه يمثّلان فرقاً آخراً مهمّاً بين المرتبتين»[١٦].

لم ينته التفاضل عند هذا الحدّ فحسب؛ بل صوّرَ القرآنُ الكريمُ التفاضلَ داخل المرتبة الواحدة -الرسالة والنبوّة -لقوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]، ففي الآية دلالة على التفضيل الإلهي الحاصل بين الأنبياء عليهم السلام ففيهم من هو أفضل وفيهم من هو مفضّل عليه ولجميعهم فضل، فإنّ الرسالة الإلهية نفسها فضيلة وهي مشتركة بين الجميع، ففيما بين الرسل أيضاً اختلاف في المقامات وتفاوت في الدرجات فإنّ الاختلاف بين

(١٥) الزمخشري، الكشّاف: ٢/ ١١٤٤.

(١٦) ستّار الأعرجي، الوحي: ٨٦. ظ: المفيد، الاختصاص: ٣٢٨، ظ: مغنية، الكاشف: ٥/ ٣٤٠.

الرسل اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات مع اتّحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة[١٧]، وهذه الدلالة تؤكّدها الآية نفسها لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي أنّ هذه الرفعة الإلهية بموجب التفاضل الذاتي والسلوك الإجرائي والثبات على طاعة الله تعالى والصبر على البلوى، فهي درجة مشتملة «على أمر واقعي غير اعتباري»[١٨] بلحاظ مقدّماتها الواقعية والعملية.

ولأهميّة هذه المرتبة الرفيعة عند الله تعالى وأهميّة أثرها بفضل الشرائع بعضها على بعض كان اهتمام الباحثين بالنظر ملياً في مقوّمات هذه المرتبة ولوازمها التي تميّز مرتبة هذه الشريعة عن تلك، ولعلّ محاولات القدح في هذه المرتبة بنسب الجنون والسحر وغيرها من الدعاوى الباطلة إلى شخص الرسول الأكرمﷺ في زمن الوحي وفي هذا الزمن أيضاً غايته قطع صلة النبيﷺ بالله تعالى ونفي سماوية الكتاب والرسالة.

## الأدلّة العقلية

### لسماوية الرسول والرسالة:

إنّ الشك في الرسالة السماوية للرسولﷺ مدعاة للشكّ بالركن الرئيس والأوّل للإسلام وهو القرآن الكريم وعدّه صنعاً بشرياً.

وللردّ على ذلك ينبغي أن نتعامل على أساس المبنى العقلي والتاريخي والتجريبي فحسب؛ بحسبان عدم تسليم الطرف الآخر بأي دليل غيبي أو نقلي مستمدّاً من الرسالة المحمّدية نفسها، لذا لزم عرض جملة من الأدلّة تثبت سماوية القرآن الكريم ونبوّة محمّدﷺ التي يمكن اختزالها بما يأتي:

١. وحدة موضوع الرؤية الكونية في مصادر شريعة الإسلام عامّة وانسجام مرتكزاتها من جهة وانسجام الظواهر والتفريعات مع أُمّات القضايا والموضوعات من جهة أُخرى.

٢. تناسق الأحكام التشريعية -العبادية والمعاملاتية -على مدى ٢٣ سنة

(١٧) ظ: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢/ ٣١٣.

(١٨) المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٥.

(وهي مدّة الوحي) وكذا انسجامها وموضوعاتها والعلّة من وراء سنّها وبقائها حتّى يومنا هذا، إذ لا يمكن إحراز منظومة متكاملة مع فرض أنّها من مخاض تفكير الرسول ﷺ ونتاجه الذاتي. فورود منظومة بهذه الدقّة من دون أن يطرأ عليها أي تعديل بين الحين والآخر[١٩] كما هو حال التشريعات الوضعية -على الرغم من صدورها من جهات مختصّة- يُعدّ دليلاً على سماويتها وسماوية رسولها.

٣. إنّ المنظومة القيمية التي جاء بها الرسول الأكرم والرسالة الإسلامية منسجمةٌ تماماً مع القيم المطلقة، إذ لم يعرض ﷺ مفهوماً نسبياً يخالف ما أقرّته الرسالات الإلهية السابقة وكذا الأُمم اللاحقة، ممّا يدلّ على عدم بشرية ما جاء به الرسول ﷺ.

٤. يُعدّ القرآن الكريم منسجماً في نظمه ومعناه لا تنفكّ أجزاء تناسقه بعضها عن بعض، إذ يقول الإمام علي عليه السلام: «وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض»[٢٠]، وهذا يدلّ على أنّه مكوّنٌ واحدٌ متجانسٌ في الروح والماهية، فأوّل القرآن كأوسطه وآخره وأوّله، وكلّ آية فيه مماثلة لسائر الآيات والسور من حيث رقي الأُسلوب والدلالة[٢١]، وهذا أحد وجوه الإعجاز، إذ لا يمكن

(١٩) قد يُشكل أنّ النسخ في القرآن الكريم هو أحد أوجه التغيير، ويمكن أن نجيب بالآتي: إنّ النسخ في القرآن الكريم إنّما جاء نتيجة متطلبات تغيّر الموضوع وظرفه الزمكاني والبيئي، كما أنّ النسخ لم يتعرّض للكلّيات إطلاقاً بل للمسائل الجزئية، وغير ذلك من الأبعاد التي لا تخلّ في أصل المطلب خاصّةً وأنّ القرآن الكريم يبيّن المقصد من وراء النسخ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[سورة البقرة: ١٠٦]. كلّ ذلك حال الاعتقاد بوقوع النسخ في آيات القرآن الكريم والحال أنّ بعض من العلماء ومنهم الخوئي ذهب الى نفي وقوعه فيه، وأشار إلى توهّم من ادّعى ذلك، وقد استثنى آية النجوى فقط. ظ: الخوئي، البيان: ٢٧٧.

(٢٠) الشريف الرضي، محمّد عبدة، نهج البلاغة: ٢/ ١٧/ خطبة ١٣٣.

(٢١) محاضرة صباح عنوز لطلبة الدراسات العليا في كلّية الفقه/ الدكتوراه ـ قسم علوم القرآن: الساعة الحادية عشر من صباح يوم ١٣/ ١٠/ ٢٠١٣م.

تحقيق ذلك مع فرض بشرية القرآن بلحاظ أنّ الرسول ﷺ سيتأثّر بحكم بشريته بالظروف الذاتية ممّا يؤدّي إلى تغيير أُسلوبه في الخطاب فضلاً عن الظروف الزمانية والمكانية، ممّا يستدعي تباين آيات القرآن وسنّته بمقتضى تباين الرؤى والأفكار المتأثّرة بالظروف في أعلاه، ولا سيّما أنّ حقبة الوحي ليس بقليلة، فهي ثلاثة وعشرون عاماً وقد مرّت بظروف متغايرة كثيرة وطويلة الأمد.

فمع الفرض والمدّة في أعلاه لا يمكن القول ببشرية الرسالة المحمّدية ولا سيّما أنّ علماء النفس والاجتماع وكلّ الدراسات الإنسانية قد أجمعوا على أنّ أفكار الإنسان ورؤاه تتأثّر طردياً بمناخات مقوّمات شخصيته -وهي: الأُسرة وبيئة النظم الاجتماعية والجينات الوراثية والرفقة والقوى الذاتية[٢٢] وهذا ما لم نجده بتاتاً في المنظومة التي أتى بها الرسول الأكرم ﷺ بحكم سماويتها.

٥. يُعدّ كتاب الله وطريقة وحيه وآلياته دعوةً للرسول من أجل نشر شريعة الإسلام ومضامينه الداعية للحجج العقلية والمنطقية فضلاً عن أنّ السبل الحسّية والتجريبية دعوةٌ لحرّية التفكير للوصول إلى حقائق الأشياء وماهياتها، وهو نمط اشترك به جميع الرُسل والرسالات الإلهية.

٦. بمقتضى الجعل الإلهي كانت المعجزات إحدى أهمّ طرق إثبات صدق دعوة الرُسل فضلاً عن تعزيز رسالاتهم السماوية حتّى باتت -المعجزة -من أهم مشتركاتهم، ووجود القرآن الكريم بوصفه معجزة الإسلام فضلاً عن المعجزات الأُخر من ضمن الجعل والمشتركات في أعلاه.

٧. يُعدّ الإخبار الغيبي بالمستقبل وكذا استشراف الرسول ﷺ والقرآن الكريم من الأدلّة الواقعية لارتباطه ﷺ بالوحي الإلهي، فضلاً عن أنّ الحقائق التاريخية التي ذكرها

(٢٢) ظ: أحمد عزّت راجح، أُصول علم النفس: ٥٠٣ -٥٣٧.

القرآن الكريم والرسول الأكرمﷺ عن أُمم وأنبياء ورسل سبقت عهد الرسالة الإسلامية منذ قرون متطاولة، تُعدّ دليلاً على صدق ما أُوحي إلى النبي، إذ إنّ الله تعالى قد أخبر الرسول بكلّ تلك الحقائق التاريخية وذلك لاستحالة معرفته بهذه الأحداث، ولا سيّما أنّ بيئة العرب آنذاك كانت بيئة معزولة عن الأُمم الأُخرى إلّا بما يتعلّق بقنوات التجارة التي لم يمتهنهاﷺ إلّا مرّتين في حياته[٢٣].

٨. مثّلت الحقائق العلمية التي ذكرها أو نبّه عليها القرآن الكريم من زمن الوحي دليلاً آخر على صدق نبوّة الرسولﷺ، في الوقت الذي تأخّر العلم لاكتشاف تلك الحقائق العلمية في مختلف المجالات[٢٤].

٩. لو أنّ القرآن من الرسولﷺ وأنّه لم يوحَ إليه -كما ادّعى بعضهم- لاقتضت الحكمة منه -بناء كيانه الذاتي -أن لا يعلن رفضه لكلّ القيم والمعايير والمبادئ التي رفضها الإسلام اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً، إذ عُدّ انقلاباً ساخراً وواضحاً على أُمّته ومجتمعه؛ بل لحباهم وأرضاهم في بعض المضامين بما يصبّ في مصلحته، وذلك لإنجاح ما سعى إليه، ولكن حاشاه من ذلك لأنّ خلقه مبادئه وحي السماء والقرآن.

١٠. إنّ دعوة بشرية النبي محمّدﷺ والقرآن، على أنّهﷺ كان قد نهل وتعلّم مضامين رسالته من بعض القساوسة والرهبان، يفرض علينا طرح سؤال مقتضاه: لِمَ لم يعلن أحد هؤلاء القساوسة والرهبان ذلك من جهة؟. ولِمَ لمْ تبرز قابلية هذا القسّ أو ذاك في مجال فنون البلاغة وإعداد النظم التشريعية؟. ليكون له السبق في ذلك بدلاً من أن

(٢٣) للاستيثاق والاستزادة ظ: البيهقي، دلائل النبوّة: ٢/ ٦٦، المقريزي، إمتاع الأسماع: ٨/ ١٨٦.

(٢٤) للاستزادة ظ: كارم السيّد غنيم، الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حميد النجدي.

يمنحها محمّد بن عبد الله ﷺ.

## تفرّد النبي محمّد ﷺ:

لقد اصطفى الله تعالى رسول الله ﷺ للرسالة الخاتمة التي كمل الدين وتمّ بها، واصطفاؤه ﷺ لحمل الرسالة المهيمنة له مسوّغاته المنطقية، إذ لزم بالضرورة أن تكون هناك فروقات خاصّة لحامل الرسالة المهيمنة كما هي الحال في فروقات الرسالة نفسها، وبالنظر في اصطفائه ﷺ ولوازم تفرّده يتبيّن وجود اعتبارين هما: الأوّل المائز الذاتي للرسول الأكرم؛ أي إنّ الله تعالى منح رسول الله سمات متعدّدة بحكم ما تميّز به ﷺ عن بقية الرسل والأنبياء فضلاً عن البشر جميعاً، أمّا الآخر فهو مائز الجعل التشريعي، أي إنّه تعالى قد سدّد نبيّه ﷺ بمعجزات وكرامات متعدّدة اختلفت عن معجزات غيره من الأنبياء والرسل بموجب أنّه ﷺ رسول خاتم الرسالات والشرائع وعلى يديه يتحقّق كمال الدين، وبمقتضى الاعتبارين يكون تفرّد الرسول واصطفاء الله تعالى له بمقتضى أنّه خير خلقه، وأنّ أي فارق يذكر على المستوى الذاتي أو الجعل التشريعي سيكون بلحاظ ما تقدّم، ومن هذه الانفرادات التي انفرد بها الرسول الأعظم هي ما يأتي:

١. **المعجزة العقلية:** القرآن الكريم معجزة عقلية اختلفت عن سائر معجزات الأنبياء والرسل عليهم السلام التي كانت معجزات مادّية، إذ تُعدّ المعجزة العقلية معجزةً دائمية لعدم انتفاء الجانب العقلي من جهة ولانتفاء المعجز المادّي ومحدودية وقته بانتفاء العلّة من وجوده فضلاً من انتفائها بوفاة الرسول والنبي من جهة أُخرى، ونجد الرسل عليهم السلام جميعهم قد افتقروا للتصديق من قبل الكتب الإلهية اللاحقة وأنبيائهم، إذ أُنتهج بهذا النهج على طول مراحل الوحي الإلهي، على حين لم يفتقر الرسول الأكرم ﷺ والقرآن الكريم إلى التصديق بوصف الأوّل خاتم الرسل من جهة وأنّ معجزته معجزةً عقليةً دائمةً من جهة أُخرى، إذ ينتفي التصديق بكتاب تالٍ لاثبات

هيبة القرآن الكريم.

٢. **الرسالة الخاتمية**: قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠]، إذ تُعدّ خاتمية النبوّة مائزاً للرسول الأكرم لا بلحاظ أنّ نبوّتهﷺ آخر النبوّات؛ بل بلحاظ أنّ الله جعله خاتماً للرسالات الإلهية وأنّ اصطفاءه للرسالة الخاتمة كان بحكم أنّها الأفضل والأتمّ والأكمل، وعليه فإنّ النتيجة تقتضي أنّ اصطفاء أي رسول للشريعة المهيمنة لابدّ من أن يكون ذلك الرسول مهيمناً في المنزلة والرفعة لا محالة.

٣. **قدرتهﷺ على تحمّل الصعاب**: إذ اتّسم الرسول الأكرمﷺ بقدرته على تحمّل الصعاب في أداء رسالته والظروف التي أحاطت بهﷺ، حين يستوجب ما عليه أن يؤدّيه اتّجاه مسؤولياته، إذ يقول الرسول الأكرم: «ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت»[٢٥]، لذا خاطبه الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [سورة الطور: ٤٨]، ومن هنا عُدّ عطاؤهﷺ أصلاً من أُصول اتمام الرسالة الإلهية، إذ من دونه لا تستبين لها دلالة ولا تتّضح لها غاية[٢٦].

٤. تعظيم الخطاب القرآني للرسول الأعظمﷺ، إذ تميّز الخطاب بتعظيم شأنه وبيان رفعته بعين الله، فلم يذكر القرآن (اسم الرسول محمّدﷺ) عند مخاطبته مباشرةً قط إجلالاً له وتكريماً لمقامه عنده سبحانه، ولهذا كان ينعته بصفة الرسول والنبي لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [سورة المائدة: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥].

(٢٥) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٩/ ٥٦.

(٢٦) ظ: ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني: ٢/ ٤٥٢ -٣٥٤.

٥. **الشفاعة**: خصّ الله تعالى الرسول الأعظمﷺ بالشفاعة، في حين لم يصرّح القرآن الكريم عن بإمكانه شفاعة بقيّة الأنبياء والرسلعليهم السلام لمحبّيهم، على الرغم من أنّ القرآن بيّن مشروعية الشفاعة وإمكانية وقوعها في آيات متعدّدة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٨]، في الوقت الذي صرّح القرآن في آيات متعدّدة أُخر بمنح الرسول الأكرمﷺ خصيصة الشفاعة لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٩]، فقد نقل العياشي عن تفسير الآية عن أحدهماعليهما السلام قال: «هي الشفاعة»[٢٧] وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [سورة الضحى: ٥] فالآية في مقام تسلية الرسولﷺ وإكرامه، ونفي الهجر عنه وعمّن أحبّه في الدنيا والآخرة، فهي «ليست مطلق النعمة؛ بل نعمة مطلقة»[٢٨]، فهي أرجى آية دالّة على إمكانية صدور الشفاعة من الرسول المصطفى، فالآية في مقام الامتنان للرسولﷺ وفيها وعد خُصّ بهﷺ لم يعد سبحانه بمثله أحداً من خلقه قط[٢٩]، ومن ضمنهم الأنبياء والرسلعليهم السلام وهذه النعمة المطلقة هي (الشفاعة).

٦. **الشهادة**: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة النحل: ٨٩]، إنّما يُراد من الشهادة الوقوف عند أعمال الأُمم بوصف الشهيد حجّةً على أُمّته، ففي الآية «دلالة على أنّ كلّ عصر لا يجوز أن يخلو ممّن يكون قوله حجّةً... وهو عدل»[٣٠]، والآية تشمل جميع الأنبياء والرسلعليهم السلام بوصفهم الحجج على أُممهم، في حين

(٢٧) العياشي، تفسير العياشي: ٢/ ٣٣٧.

(٢٨) محمّد صادق الصدر، منّة المنّان: ٢/ ٨١.

(٢٩) ظ: الطباطبائي، الميزان: ١/ ١٧٧-١٧٨.

(٣٠) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ١٤/ ١١٣.

يكون الرسولﷺ شهيداً على أُمّته وعلى بقيّة الأنبياء والرسلﷺ أيضاً بدلالة قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فلفظة هَـؤُلاء تدلّ على «الشهداء دون عامّة الناس فالشهداء شهداء على الناس، والنبيﷺ شهيد على الشهداء وظاهر الشهادة على الشاهد تعديله دون الشهادة على عمله فهوﷺ شهيد على مقامهم لا على أعمالهم ولذلك لم يكن من الواجب أن يعاصرهم ويتّحد بهم زماناً»[٣١]، فإن كان الرسولﷺ شاهداً على جميع الأنبياء والأوصياء فهذا يدلّ دلالة قاطعة على تفرّده بهذه السمة، علاوةً على كونه المهيمن على جميع الخلق ومن ضمنهم الأنبياء والرسلﷺ جميعاً بحكم أنّه الحجّة عليهم قاطبةً من دون استثناء.

٧. إنّ التبشير بالرسول الأكرم في الكتب السماوية لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧] فيه دلالة على سمة انفرادهﷺ عن غيره بوصفه النبي الخاتم والمهيمن والمرجع لبقيّة الرسلﷺ والحجّة عليهم، ولهذا تسالمت على ذكرهﷺ كتب العهدين القديم والجديد، فإنّه يلحظ فيها «عبارات تتضمّن إشارات مُعتدّ بها حول ظهور هذا النبي العظيم»[٣٢]، وقد أفرد علماؤنا بحوثاً في مجال جمع البشارات من الكتب السماوية على الرغم من اعتقادنا بأنّ يد التحريف طالتها، ومن ذلك على سبيل المثال ما: «جاء في سفر التكوين الاصطلاح ١٧ العبارة ١٧ إلى ٢٠: وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله... وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه (أي دعاءك في حقّه) ها أنا أُباركه وأُثمره وأكثره

(٣١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٢/ ٣٢٤.

(٣٢) مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤/ ٥٣٦.

كثيراً جيّداً. اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أُمّة كبيرة»[٣٣].

٨. **الأمان**: من جملة ما خصّ الله تعالى به رسوله الكريمﷺ دون غيره من الأنبياءعليهم السلام أنّه أمانٌ للناس أين ما حلَّ، ومن ثمّ كان ذلك حصناً وأماناً لأُمّته دائماً، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣]، إذ لا يمكن جمع العذاب والرحمة بوصفهﷺ رحمةً لقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]، فقد روي عن الإمام عليعليه السلام بهذا الشأن ما نصّه: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به، أمّا الأمان الذي رفع فهو رسول اللهﷺ، وأمّا الأمان الباقي فالاستغفار»[٣٤]، في حين نجد أُمم الأنبياء والرسلعليهم السلام قد أذاقها الله تعالى: ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة النحل: ١١٢] ومن جنس ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [سورة النحل: ١١٣].

نخلص ممّا تقدّم أنّ الله تعالى قد فضّل بعض الأنبياء وأنزلهم درجات من الرفعة متعدّدة، وأنّه كان للرسولﷺ أرفع الدرجات لقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣] لأنّ الله تعالى قد منح المصطفىﷺ خصائصَ وفضائلَ لم يخصّ بها أحد من قبل، لذا «رفعه على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة فهو المفضّل عليهم»[٣٥]، وعليه فإنّ رفعة منزلة الرسولﷺ وتميّزه -عن البشر عامّة فضلاً عن الأنبياءعليهم السلام- يمنحه سمة الهيمنة الشأنية وتلك الهيمنة التي

(٣٣) المصدر نفسه: ٤/ ٥٣٦.

(٣٤) الشريف الرضي، محمد عبدة، نهج البلاغة: ٤/ ١٩/ تسلسل ٨٨.

(٣٥) الزمخشري، الكشاف: ١/ ١٣٦.

تمثّل المرجعية للرسول الأكرم فهو المرجع لجميع الأنبياء والرسل بحكم أنّه الشاهد عليهم جميعاً، وهو المهيمن بحكم أنّه الخاتم لجميع الرسالات وغيرها من السمات الأُخر التي تعزّز مبدأ الهيمنة لهﷺ، وبالمحصّلة فإنّ الشريعة المهيمنة ذات الكتاب المهيمن يلزم منها أن يكون رسولها مهيمناً بسماته واصطفائه بالحتمية المطلقة.

## المطلب الثاني

## الانسان وخصيصة الهوية الإسلامية

عرض القرآن الكريم خصيصة الإنسان بعنوانه العام كما اعتنى بعرض خصيصته وهو منتسبٌ للهوية الإسلامية، وفي كلتا الحالين صوَّر النصُّ الكريمُ أهميّة الإنسان وعلو رتبته موازنة ببقيّة الموجودات من جهة وقيمته العليا بوصفه خليفة الله تعالى في الأرض من جهة أُخرى، أي إنّه -القرآن الكريم- سعى لعرض الإنسان من جهة جعل الله التكويني له، وكذا جعله التشريعي باصطفائه خليفةً له سبحانه وتعالى دون سائر المخلوقات.

### الإنسان وقيمته العليا:

لقد كان لزاماً على الباحث أن يبيّن خصيصة الإنسان بوصفه مخلوقاً في ضمن المخلوقات الأُخر، وأنّه يشترك مع بعض الكائنات الحيّة ويختلف عنها في موارد أُخر، من هنا قيل إنّ في الإنسان خصيصة المعادن، وهي الكون والفساد، وخصيصة النبات، وهي النمو والغذاء، وخصيصة الحيوان، وهي الحسّ والحركة، وخصيصة الإنسان، وهي التفكّر والإدراك، وخصيصة الملائكة، وهي الطاعة والحياة، لذا قيل إنّه -أي الإنسان -حيوان ناطق موازنة بجنس الحيوان، بحكم أنّه يشترك مع جنسه في كثير من المشتركات ولا سيّما العضوية بيد أنّه يختلف عنها في الإدراك الذي يُعدّ المائز الحقيقي بين الاثنين، لذا عُرف بأنّه ناطق أو مدرك أو مفكّر أو طالب الهدف أو الطالب المطلق أو المختار وغير ذلك [٣٦] من المقولات التي يكون قاسمها المشترك سمات وخصائص تفرّقه عن

(٣٦) ظ: محمّد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية: ٢٤٠.

جنس الحيوان وتخرّجه من المحدودية إلى ألّلا محدود في التفكير والنمو والتطوّر، وكذا في الرغبات والميول.

وبالنظر إلى تلك الخصائص التي تميّز الإنسان ندرك حقيقة فارق الإنسان وماهيته ورفعة منزلته عند الله تعالى موازنة بسائر المخلوقات، إذ يمكن أن يتميّز عن غيره بمائزين رئيسين هما(٣٧):

**أوّلاً: وعي الإنسان وعمق معرفته:**

لعلّ أهمّ ما يميّز الإنسان قدرته على النفوذ إلى أعماق الأشياء بالنظر والمعرفة، فهو قادر على الانتقال من جزئيات العالم المحيط به ومفرداته للتعرّف على القوانين الكلّية والواقعية والحقائق العامّة التي تستوعب العالم، ونفوذه هذا-بحكم العقل -تجاوز الظرفين المكاني والزماني ومحدوديتهما ليطلّ على نافذة الماضي والحاضر والمستقبل بل يقف خارج حدود الطبيعة، ولو لم يكن قادراً على ترتيب المقدّمات وتنظيم المعلومات للوصول إلى نتائج مجهولة لبقي في درجة ومرتبة واحدة من دون تقدّم.

**ثانياً: الميول والرغبات والأهداف:**

بمقتضى وعي الإنسان وعمقه المعرفي نجده له رغبات تدفع به للبحث عن متطلّبات لتحقيق ميوله وأهدافه، لذا عُدّ مائزاً آخر يميّز الإنسان عن بقيّة أفراد جنسه، من هنا نجد تلك الرغبات تتأثّر طردياً عكسياً بحجم سعة الإنسان وعمق معرفته، ولمّا كان الناس غير مستوين في المقدّمات كانوا غير مستوين أيضاً في النتائج والأهداف التي يتوصّلون وينتهون إليها على الرغم من فطرية تلك الميول والرغبات بحكم أنّ الإنسان مفكّرٌ، وأنّ سمة التفكّر والإدراك نابعة من أُمور فطرية تشكّل ذات الإنسان وحقيقته، وهي: حبّ الاطّلاع ومحاولة الوصول إلى الحقائق الواقعية، حبّ الخير والقيم، حبّ الجمال والرغبة إليه، الميل إلى الإبداع، العشق والعبادة، ويمكن أن نختزل جميع ذلك بأمر فطري واحد هو (حبّ

(٣٧) ظ: الخميني، رسالة الطلب والإرادة: ١٢٥، مرتضى مطهّري، الإنسان والإيمان: ٨-١٢، كمال الحيدري، الفلسفة شرح الأسفار الأربعة: ١/ ٢٤-٢٨.

الكمال المطلق).

نستنتج ممّا تقدّم أنّ الفارق بين الإنسان وسائر الحيوانات العلم والمعرفة الذي هو ملاك (إنسانيته) هذا من جهة، وطلبه المطلق بغية تحقيق رغباته وأهدافه من جهة أُخرى، فهو اختلاف في الماهية فضلاً عن الاختلاف الكيفي، لذا أشار محمّد باقر الصدر إلى هذه الحقيقة ووصفها بالنتيجة الخطيرة، لأنّها تكشف عن ماهية الإنسان وحقيقته المادّية والروحية التي كابر وجودهما المذهب التجريبي، إذ يرى الصدر أنّ للإنسان جانبين «أحدهما مادّي متمثّل في تركيبه العضوي، والآخر روحي لا مادّي، وهو مسرح النشاط الفكري والعقلي»[٣٨].

فقد صوّر القرآن الكريم قيمة الإنسان العليا ومنزلته الرفيعة من آيات متعدّدة منها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن: ١ – ٤]، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [سورة العلق: ٥].

(٣٨) محمّد باقر الصدر، فلسفتنا: ٤٢٥.

## معيار خصيصة التفاضل

لم تكن فكرة الخصيصة غريبةً عن ثقافة المجتمعات والشعوب في العصور المتقدّمة وكذا المتأخّرة، فقد صوَّر القرآن الكريم تفاخر اليهود والنصارى بانتسابهم إلى شرائعهم واتّباع رُسلهم حتّى غالوا في القول بأنّهم أبناء الله، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة المائدة: ١٨]، فقد فُسّرت الآية على «أنّ اليهود قالوا نحن في القرب من الله بمنزلة الابن من أبيه، والنصارى لما قالوا للمسيح ابن الله، جعلوا نفوسهم أبناء الله وأحباءه»[٣٩]، في حين فسّرها آخرون بأنّ المراد من قولهم ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ هو المعنى المجازي، فيستفاد من ذلك أنّهم أرادوا من اطلاق الأبن عليهم لأجل إظهار أنّهم مورد عنايته سبحانه وعطفه ومحبّته[٤٠]، وفي كلتا الوجهتين من التفسير، يكون مورد

(٣٩) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ٦/ ٥٩.

(٤٠) ظ: السبزواري، مواهب الرحمن: ١١/ ١٠٩.

الاختصاص -بما ورد من دعوتهم -في مقام التشريف والإكبار مُفاضلةً على غيرهم بحكم أنّهم الأقرب للحقّ والهدى باتّباعهم لشريعة الله تعالى.

وعرض القرآن الكريم وجهات نظر متعدّدة للتفاضل بلحاظ تباين رؤى البشر واتّجاهاتهم، إذ أعاد البشر خصيصة التفاضل فيما بينهم تارةً إلى النسب وأُخرى إلى المال والولد، في حين ذهب آخرون إلى تفاضل العرق، وغير ذلك من أوجه التفاخر[41]، وبغضّ النظر عن وجه المقارنة عن جميع ما تقدّم من صور المفاضلة، فإنّ مائز الرؤية الكونية والنظم القيمية يُعدّ معيار المفاضلة على وفق الرؤية القرآنية مطلقاً.

ولعلّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] من قبيل المصداق على ما ذُكر في أعلاه، فالآية المباركة تبيّن أنّ التعارف هو المسوّغ من وراء جعل الله البشر ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، فالآية في مقام بيان استهجان التفاضل والتفاخر بالأنساب والنهي عنه من جهة وتثبيت مبدأ التقوى بوصفه معياراً للتفاخر من جهة أُخرى، لقوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فيكون النصّ الكريم هنا في مقام «تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقي كأنّه قيل إنّ الأكرم عنده تعالى هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى»[42] ليس غيُر.

وصوَّر القرآن الكريم حقيقة التفاضل وحدّد معالمه في مواطن متعدّدة

(٤١) ومن جنس ذلك التفاضل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [سورة المائدة: ١٨]، وقوله سبحانه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [سورة الكهف: ٣٤]، وقوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [سورة التكاثر: ١].

(٤٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٨/ ١٢٣.

فيه كان منها العلم والمعرفة قبال الجهل، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الزمر: ٩]، في حين نجد النصّ القرآني في موطن آخر وضع أساساً عُبّر عنه بالطيّب والخبيث وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٠]، فالبون واسع بين الخبيث والطيّب بموجب الرؤية القرآنية وإن كَثُرَ الخبيث أو كان محلّ إعجاب، إذ الطيّب «عام في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وصحيح المذاهب وفاسدها، وجيّد الناس ورديّهم»[٤٣]، وعبّر -القرآن الكريم- عن ذلك بتعبير آخر ليفرّق بين المؤمن والكافر، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة هود: ٢٤] فالآية المباركة أرادت أن تشبه «الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن اسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبّر معانيه وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأنّ أمره بالضدّ فيكون كلّ واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضدّيهما»[٤٤]، بهذا نجد التعبير القرآني قد خاطب المتلقّي بتعبيرات متعدّدة ليفرق كنايةً بين المسلم والضالّ، وبين المؤمن والكافر وبين الطيّب والخبيث وغيرها من أوجه التفاضل[٤٥] ومنها قوله تعالى:

(٤٣) الزمخشري، الكشّاف: ١/ ٣١٠.

(٤٤) البيضاوي، تفسير البيضاوي: ٢/ ٢٥٩.

(٤٥) قد يُشكل أنّ المقصد من تفاضل المراتب في شريعة الإسلام فضل المؤمن على من سواه ومنه المسلم بدليل القرآن الكريم نفسه لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [سورة الحجرات: ١٤]. نقول: نعم هناك فرق بين معنى الإسلام والإيمان، فالإسلام أعمّ من الإيمان ممّا يُحتّم وجود الفرق والرتبة بينهما، بيد أنّ الآيات القرآنية ونصوص السنّة المطهّرة صوّرت هذه المنازل وعدت قبول الإسلام بمجرّد إعلان الشهادتين ولم يظهر الناطق بهما ما يُخالف أُسس الشريعة الإسلامية -إذ يُعدّ ذلك إسلاماً ظاهرياً -وعلى الرغم من كلّ ذلك فإنّ الجعل التشريعي لله تعالى أوجب وجود

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [سورة فاطر: ١٩ -٢٢]، وهو ما يفضي بالقرآن الكريم إلى حقيقة أنّ التفاضل والتفاخر هو ما يحمله الإنسان من قيم عليا ومثل رفيعة تمثّل رؤية السماء الكونية.

## الجعل الإلهي وخصيصة الهوية الإسلامية:

لا شكّ في أنّ خصيصة الهوية الإسلامية لم تأت من فراغ؛ بل جاءت بموجب التفاضل الذي شرّعته سنن السماء الإلهية وقوانينها، ونجد آثار هذه القوانين الإلهية واضحةً من بين أحكام الشريعة الإسلامية إجرائياً، إذ نتلمّس التفاضل بين المسلم والآخر بموجب الجعل التشريعي لله تعالى، وهذا ما يمكن قراءته من دلالة لفظة (الجعل) في الآيات التي تبيّن التفاضل أو تحدّد معياره، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] وقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

مناخات شرعية تعصم دماء المسلم وماله وغيرها، في الوقت نفسه أكّد القرآن الكريم ضرورة تعميق الإسلام الواقعي المتمثّل بالإيمان بوصفه الحالة المثلى لخليفة الله تعالى في الأرض من جهة وتحقيق الغاية من وجود الشرائع والرُسل-وهي ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]. من جهة أُخرى. في حين نستفيد من الاستفهام في أعلاه أنّ مرتبة الإسلام وحدها تُعدّ مرتبةً رفيعةً عند الله تعالى بلحاظ أنّ معيار التفاضل بين البشر على وفق الرؤية القرآنية وقوف الإنسان عند الحقّ وما يحمله من قيم تمثّل الرؤية الكونية المثلى، وبالتفريق بين الإسلام والإيمان ندرك هذه الحقيقة أنّ الإسلام على الرغم من أنّه أقلّ منزلةً من الإيمان أرفع مكانةً من هو خارج هذه الدائرة، لما أشرناه من أنّ الإسلام أعمّ من الإيمان كما أسلفنا «لأنّ أحدهما استسلام بالظاهر والآخر إذعان بالباطن، وقد يجتمعان إذا تطابق الظاهر والباطن على أمر واحد فكان القول والعمل به مصداقاً للاعتقاد له، فالإيمان يراد به مطلق التصديق بحقّ أو باطل، ويراد بالإسلام مطلق الانقياد» الرسالات السماوية السابقة امتداد أنّ تقاطع، أبو اليسر رشيد كهوش: بحث من ضمن البحوث التي أُلقيت في مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع ٢/ ١٢/ ٢٠١٣م.

[سورة النساء: ١٤١] فالظاهر من معنى الآيتين المباركتين أن جعل الله تعالى جعلٌ تشريعيٌّ، إذ كانت دلالة الأُولى أنّ التقوى معيار التفاضل والتفاخر ولا تتحقّق التقوى ما لم يتمسّك المرء بمنطق التشريع الإلهي -الأحكام السماوية -وبهذا فإنّ ضابطة التقوى- ميدان التفاضل -في الآية الكريمة هي معالم التشريع وأحكامه، في حين أنّ الآية الأُخرى كانت دلالتها أنّ الله تعالى «لم ولن يجعل في عالم التشريع حكماً يكون موجباً لكونه سبيلاً وسلطاناً للكافرين على المؤمنين» [٤٦]، فالأظهر ممّا تقدّم أنّ القرآن الكريم صور أنّ مقصد الجعل الإلهي التشريعي هو تحقيق علو المؤمنين ورفعتهم لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة المنافقون: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٣٣]، ومن هذه الأحكام التي تدخل في هذا العنوان ما يأتي:

١. المسلم هو كلّ من شهد الشهادتين ولم يُظهر منه إنكار لضروري من ضرورات الدين حتّى ولو كان إسلامه ظاهرياً غير واقعي، لأنّ أحكام الإسلام تدور مدار إعلان الشهادتين، وبذلك يُعدّ كلّ من أعلن الشهادتين في عرف النُظم الإسلامية مسلماً مساوياً في الحقوق والواجبات[٤٧].

٢. يُعدّ المسلم طاهراً وطهارته معنوية قبال الكافر الذي نجاسته معنوية بلحاظ الفساد العقدي[٤٨]، فقد وقع «الإجماع على أنّ الإسلام هو أحد المطهّرات، بمعنى أنّه إذا أسلم الكافر طهر بالإسلام وهو ظاهر»[٤٩].

٣. لا سلطة للكافر على المسلم بأي نحو من أنحاء السلطة بموجب

(٤٦) البجنوردي، القواعد الفقهية: ١/ ١٨٧.

(٤٧) محمّد باقر الصدر، ومضات: ٢٤٥.

(٤٨) محمّد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة: ٣٥٢، الگلپايگاني، نتائج الأفكار: ٢٧.

(٤٩) عماد الدين الأعرجي، كنز الفوائد في حلّ مشكلات القواعد: ١/ ٤٢.

قاعدة العلو ونفي السبيل، إذ يُعدّ قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤١] دليلاً على نفي سيطرة الكافر على المؤمن، على حين يُعدّ قول الرسول صلى الله عليه وآله عمّا نُقل عنه: «الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه»[٥٠] دليلاً آخر على نفي السبيل من جهة وعلو سيطرة المؤمن على الكافر من جهة أُخرى، ولعلّ العلّة في ذلك، وجوب إعزاز المسلم وتعظيمه وعدم إهانته[٥١] إكراماً لانتمائه لشريعة الإسلام الإلهية كما أشرنا إلى ذلك.

٤. إنّ الشخص إذا كان كافراً وأسلم سقطت عنه حقوق الله تعالى، سواء أكانت مالية أم غيرها، فالمالية مثل الزكوات والكفّارات ونحوها، وغير المالية مثل الصلاة والصوم وسائر العبادات[٥٢]، وذلك لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨]، ولما نُقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله لقوله: «الإسلام يجبّ ما قبله»[٥٣]، بيد أنّ ذلك لا يسقط ما في ذمّته للآخرين من المسلمين وغيرهم.

٥. يشترط في صحّة الإسلام أُمور كثيرة، نشير فيما يأتي إلى أهمّها: العبادات، والنكاح، والأولياء، والوصاية الأخذ بالشفعة، والإحياء، والنيابة في العبادات، وأخذ اللقيط، والعتق كفّارة، وإطعام المساكين من الكفّارة، والتذكية، والنذر، والقضاء، والشهادة، والقذف، والقصاص[٥٤]، ممّا يجب مراعاتها في

(٥٠) الطوسي، الخلاف: ٤/ ٢٤. الطوسي، المؤتلف من المختلف بين أئمّة السلف: ٢/ ١٢، ابن إدريس الحلّي، السرائر: ١/ ٤٧٦.

(٥١) ظ: الجواهري، جواهر الكلام: ٢٢/ ٣٣٤، فاضل الصفار، فقه العلو والارتقاء: ٧-٩.

(٥٢) ظ: محمّد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسّرة: ٣/ ٢٦٨.

(٥٣) المجلسي، بحار الأنوار: ٦/ ٢٣.

(٥٤) ظ: محمّد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسّرة: ٣/ ٢٧٠.

أحكام العبادات والمعاملات.

٦. يُحرم مال المسلم وعرضه ودمه، إذ نقل عن الرسول الأكرمﷺ في خطبة الوداع أنّه قال: «وإنّي أُمرت أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله، فإذا قالوها فقد عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها وحسابهم على الله»(٥٥).

نُفيد من كلّ ما تقدّم أنّ للهوية الإسلامية خصيصة يكتسبها الإنسان بمجرّد انتمائه إلى الإسلام وإظهاره الشهادتين، إذ لا يحقّ لأحد حينئذ أن ينكر عليه عضوية الأُمّة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [سورة النساء: ٩٤]، فسياق الآية المباركة ودلالتها تقودنا إلى أنّ للمسلم مكانةً اعتبارية وحصانةً اجتماعيةً وآثاراً شرعيةً لا يمكن تجاوزها أو الاعتداء عليها.

### هيمنة الهوية الإسلامية:

لم تكن خصيصة الهوية الإسلامية متأتّية من وصفها شريعةً سماويةً فحسب؛ إذ يمكن أن يُشكَل على ذلك وجود شرائع أُخر منتمية إلى السماء أيضاً غير النصّ القرآني، إذ لا فرق بينها وبين شريعة الإسلام بالمحصّلة الانتسابية، فليس المسوّغ من التفاضل انتساب الشريعة الإسلامية -المحمّدية- إلى السماء فحسب؛ بل إنّ التفاضل لها قد جاء بوصفها خاتمةً لتراتب نزول الشرائع الإلهية فهي محصّلة إتمام دين الله تعالى وإكماله، ولمّا كانت الشريعة الخاتمة هي الأتمّ والأكمل، لزم من هنا بحكم السُّنن الإلهية فضلاً عن السُّنن العقلية أن يمتثل الإنسان المكلّفُ لها- بلحاظ أنّ شريعة الإسلام شريعة إلهية ناسخة لبقيّة الشرائع المتقدّمة بلحاظ تكاملها تتمّةً -فقد نصّ القرآن الكريم على الامتثال للشريعة المهيمنة والخاتمة لدين الله بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥]، من هنا كان فضل الشريعة الإسلامية على بقيّة الشرائع الإلهية،

(٥٥) أحمد بن حنبل، مسند أحمد: ١/ ١١، المجلسي، بحار الأنوار: ٣٧/ ١١٣.

مؤسّسة-فضلاً عن سمة كمالها وتمامها- على أساس حكم إدراك الإنسان عقلاً لوجوب اتّباع الشريعة الأحقّ بالاتّباع لأنّ كتابها هو كتاب الحقّ وقد أشارت إلى ذلك آية الهيمنة في قوله: ﴿ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وامتثاله- أي الإنسان-بوصفه مكلّفاً لأوامر شريعة الحقّ ونواهيها يُعدّ واجباً عقلاً ومنطقاً ومن هنا كان للإنسان المسلم الفضل في معادلة التفاضل، كتفاضل ﴿ ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٠]، وتفاضل ﴿ ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [سورة الرعد: ١٦]، وبين ﴿ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٩] وبين ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ [سورة هود: ٢٤]، بحكم أنّ معيار التفاضل القرآني معياراً معرفي يركن إلى الحقيقة والعلم من جهة وإلى السلوك الإجرائي من جهة أُخرى، فهل يستوي من كان خارج معادلة التفاضل القرآني -من البشر -عمّن دونه، أي هل يستوي الضالّ والمغضوب عليه و ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة النحل: ٧٦]؟.

نخلص من هنا إلى أنّ خصيصة المسلم إنّما جاءت بمقتضى تفرّده عمّن دونه في تعيينه للحقّ وتشخيصه له، بوصف التشخيص وتعيين معرفةً لماهية الشيء التي هي (الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق)[٥٦]، وأنّ هذا التفرّد للمسلم المدرك للحقيقة عمّن دونه ممّن جهل أو ضلّ أو عاند يُعدّ المائز الحقيقي للتفاضل بينه وبين الآخر، إذ يُعدّ المطلب نفسه للتفريق بين شرف الإنسان موازنة بغيره من الموجودات الأُخر، ومن هنا فإنّ شرف المسلم جاء بمقتضى إيمانه بأشرف الرسالات والقيم السماوية موازنة بغيره ممّن ضلّ طريق الهدى والحقّ، وحينئذ سيكون أرفع رتبةً بالمآل حتماً.

من هنا كانت للهوية الإسلامية خصيصة فهي تمثّل الانتماء إلى شريعة الإسلام -الشريعة المحمّدية -لفظاً والاعتقاد بأُصوله عقلاً وقلباً والعمل

(٥٦) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات: ٢٥٧.

بموجبها على نحو التسليم انقياداً وحبّاً.

## المطلب الثالث

## الآخر في ظلّ هيمنة الهوية الإسلامية

حينما يُذكر (الآخر) في حديثنا هذا إنّما يُراد منه غير المسلم أو هو الإنسان المخالف لرؤى الإسلام وعقيدته من أهل الكتاب كما أسلفنا ذلك في مطلع المبحث، بيد ما نسعى إليه من خلال هذا المطلب بيان وجهة نظر النصّ الكريم (للآخر الديني) ومعرفة المساحة المتاحة له وسط هيمنة الهوية الإسلامية، ولعرض رؤية القرآن الكريم عن (الآخر الديني) يمكن اختزال الحديث في محاور ثلاثة هي:

### الآخر وقيم الإسلام الإنسانية:

يأتي مبدأ قبول الآخر لإقرار مفهوم التعدّدية؛ أي إنّ فكرة قبول الآخر مبنية على أساس إقرار التعدّدية الدينية، ولمّا كانت الرؤية الإسلامية للتعدّدية مقيّدة غير مطلقة، بحكم أنّ مبناها قائم على أساس أنّ الرسالة الإسلامية (المحمّدية) رسالة مكمّلةٌ للرسالات التي سبقتها ومتمّمةٌ لها؛ بوصفها الخاتمة للرسالات الإلهية كافّة، رفضت الرؤية الإسلامية التعدّدية بمعناها المتداول، بلحاظ أنّها نظرت إلى التعدّدية من زاوية أُخرى، وقيّدت الموضوع بوضع ضوابط ومعايير قنّنت المفهوم بغية استقراره ببعد تداولي شرعي.

ويحسب الباحث أنّ المشكلة تكمن في تحديد مفهوم (التعدّدية) و (الآخر) ولا سيّما ما كان عند الباحثين الإسلاميين أو ممّن يَتَّهِمُ الإسلامَ بإلغاء الآخر جُزافاً، ممّا أفضى إلى علو الأصوات بلزوم قراءة النصّ الديني قراءةً جديدةً بحُجّة أنّ الرسالة الإلهية محال أن تُلغي أيّاً من المقولتين في أعلاه، في حين أنّ المشكلة-حقيقةً- تكمن في فهم النصّ الديني، وهذا لا ينافي مبدأ لزوم قراءة النصّ الديني قراءةً جديدةً وفهمه بمقتضى مراد الله تعالى.

فالأظهر أنّ القرآن الكريم بوصفه نصّاً دينياً قد حدّد معايير التعدّدية الدينية من جهة ولم يلغ الآخر بوصفه غير مسلم من جهة أُخرى -كما

سنثبته في مطلبنا هذا -وإنّما أكّد القيم الإنسانية العليا نظرياً وفعلها إجرائياً، من خلال الرؤية القرآنية التي فرَّقت بين رفضها لعقيدة الآخر وحوار الآخر معه والتعايش معه، بل وضعت نظماً لمستويات التعايش معه تتناسب بحسب تلك المستويات[٥٧]، وفرَّقت بين التسامح مع الآخر على وفق آداب وفنون تنظّم العلاقات الاجتماعية معه، ورفضها التسامح في الأُسس والمبادئ العقدية، وكذا تمّ التفريق بين بيان رؤية النصّ الكريم وحرّية فكر الآخر، إذ لا يخفى على أي متطلّع على أنّ الاعتقاد بالآخر أو قبوله لا يلزم منه الإيمان بمبادئ عقائد الآخر.

وعلى أساس التفريق بين التمسّك بالأُسس والقواعد الكلّية وآداب التعامل مع الآخر لزم القول إنّ النصوص الكريمة لشريعة الإسلام أكّدت القيم الإنسانية العليا، بل عدّتها من ضمن تطبيقاتها الشرعية العملية، فقد سنّت الشريعة السمحة أحكاماً بكلّ ما يتعلّق بالتعامل مع الآخر بما يحافظ على كلّية التمسّك بعقيدة الإسلام من جهة واحترام الآخر من جهة أُخرى[٥٨] ولهذا عدّت شريعة الإسلام جميع المفردات التي راج تداولها في النسق الثقافي المعاصر-مثل التسامح والتعايش والتعاون والحوار وقبول الآخر ونبذ العنف وما شابه ذلك -مفردات قارّة قرآنياً وإسلامياً؛ بل عدّها القرآن الكريم آلية تحقيق العدالة الاجتماعية لجميع

(٥٧) لقد نظّمت الشريعة الإسلامية علاقة المسلم مع الآخر لتأمين الحلول التي تتطلّبها العدالة في المجتمع عموماً، ممّا يلزم النظر في أساس الحكم والنظام الإداري له بحسب واقع الدولة من جهة والمجتمع من جهة أُخرى، أي إنّ هناك نُظُماً وقوانين إلهية للدولة الإسلامية ومنها قانون التعامل مع الآخر، على حين نجد نُظُماً أُخر نظّمت المسلم الآخر خارج نطاق دائرة الدولة الإسلامية، كما نجد نُظُماً أُخر عنت بتعامل المسلم مع الآخر في دولة الآخر ونظامه؛ للاستزادة يمكن النظر في الإسلامية والفدرالية، حسن بحر العلوم، ونظرية السلطة في الفقه الشيعي: توفيق السيف.

(٥٨) يمكن النظر في جميع كتب الفقه والرسائل العملية التي توضّح هذا المطلب، مع إمكانية التدبّر والنظر في علّة تلك الأحكام الشرعية والوقوف عند المؤشّرين أعلاه.

الناس التي هي مراد الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [سورة النساء: ٥٨].

## أُسس قبول (الآخر) في ظلّ هيمنة الهوية الإسلامية:

على فرض هيمنة الهوية الإسلامية لمجتمع أو نظام ما، فإنّ النصوص الكريمة للإسلام وضعت أُسساً للتعامل مع الآخر والتعايش معه وقبوله في نظامه الاجتماعي بوصفه إنساناً له حقوق كما له واجبات، ومن تلك الأُسس للتعامل مع الآخر ما يأتي:

١. **سعة الرحمة الإلهية:** عدّت شريعة الإسلام الرحمة الصبغة العامّة والهدف الأوّل والأخير من التعامل مع الآخر، فالرحمة هي الأصل والقاعدة والصبغة العامّة لنظرية التعامل، فقد أكّد القرآن الكريم هذا المبدأ لكونه الهدف الأسمى من خلق الإنسان ووجوده في الدنيا والآخرة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [سورة هود: ١١٩]، وبيّن أنّ التعامل الإلهي مع خلقه تعامل رأفة ورحمة للناس، لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [سورة غافر: ٧]، فالرحمة الإلهية عامّة شاملة لكلّ الناس لا تخصّ أُناساً دون سواهم، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦]، وبالنظر إلى أصل الوجود، وبعث الأنبياءعليهم السلام، وإنزال الكتب الإلهية، وبعثة نبيّنا محمّدﷺ ما كان ذلك ﴿ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧][٥٩]، فهي رحمةٌ واسعةٌ لكلّ شيء وما الإنسان ومن ضمنه الآخر غير المسلم إلّا من أهمّ الأشياء التي وسعت رحمته جلّ وعلا.

٢. **وسطية المنظومة الإسلامية:** تُعدّ وسطية المنظومة الإسلامية الاعتدال والتوسّط بين الأُمور، أي لا إفراط ولا تفريط بل أمر بين أمرين، يروى عن رسول اللهﷺ أنّه قال: «خير

(٥٩) ظ: نمر النمر، الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر: بحث، مجلّة الصائر، موقع الكتروني.

الأُمور أوسطها»[٦٠] ولعلّ هذه الخصيصة التي تميّزت بها الرؤية الإسلامية على مستوى الجانب العقدي والتشريعي والقيمي ألقت بظلالها على مستوى الخطاب والحوار والتعامل مع الآخر، وهذا ما نلمسه جلياً في مذهب شريعة الإسلام ومفرداته «على قدر كافٍ من الوضوح مضموناً وصياغةً، ويفسح مجالاً واسعاً للتوازن بين حسِّ الوحدة وبين الاعتراف بالتعدّدية»[٦١] وقبول الآخر والتعايش معه، على الرغم من أنّ مذهب الرؤية الإسلامية يقطع بالأحقّية المطلقة لمنظومته العقدية على النُظم الأُخرى، وقد أشار إلى هذا المضمون لفظة (الحقّ) في آية الهيمنة إذ عبّرت عن الأحقّية المطلقة للقرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ﴾.

٣. **تعزيز مبدأ الحرّية:** لقد ربط الإسلام التجربة الإنسانية بمبدأ الحرّية، وأكبر هذا المبدأ في التفكير والاعتقاد والخيار والسلوك، فباتت الحرّية بإطارها العام من ملاك الرؤية الإسلامية، إذ دخلت تحت عنوانها مفردات متنوّعة ومصاديق إجرائية متعدّدة أيضاً، ولذا كان للإنسان حقّ الاختيار والاعتقاد، بلحاظ ما تقدّم، من قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩٩]، فإقرار مبدأ حرّية الإنسان وعدم إكراهه على أي أمر ما إنّما هو أساس مصداق الانفتاح على الآخر وقبوله بوصفه إنساناً له حقّ الاختيار والاعتقاد والسلوك.

(٦٠) ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللئالي: ١/ ٢٩٦، المجلسي، بحار الأنوار: ٧٤/ ١٦٦.

(٦١) جورج قرم، تعدّد الأديان وأنظمة الحكم: ٢٥٤.

٤. **وحدة الأصل**: قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [سورة النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، فالآيتان من ضمن مجموعة الآيات التي حدّدت وحدة أصل الإنسان، إذ نفى النصّ الكريم كلّ أشكال التمايز بين الناس بسبب العرق أو اللون أو المال أو الطبقة، وبذلك أسّس مبادئ التكافؤ والمساواة والتسامح والانفتاح، كما أسّس رفضه التمييز والدونية الاجتماعية والاقتصادية والعرقية، ليفضي ذلك إلى مبدأ قبول الآخر والتعايش معه[٦٢] على أساس وحدة الخلق ولحاظ اتّفاق المنشأ الأصل للجميع.

٥. **قيم الإسلام الإنسانية**: لقد تمسّك الإسلام بمثل عليا هي من صميم المنظومة القيمية لرسالة الإسلام المبنية على أساس الرؤية الكونية الإلهية، إذ تبنّى الإسلام تلك القيم والـمُثُل العليا ذات الطابع الإنساني إذ تمثّلت بالعدالة والتسامح والحب والحوار وغيرها، فضلاً عن السنن والقوانين الشرعية التي ترجمت تلك المفاهيم الإنسانية إلى سلوك لتؤطّر جميع تلك المحاور مشكّلةً مصداقاً لاحترام الآخر وقبول خصائصه، ولهذا نجد عدداً من الآيات تخاطب الإنسان عامّة من دون النظر إلى انتمائه العقدي، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: ٥٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [سورة النحل: ٩٠].

٦. **الجعل التكويني وحقيقة التنوّع البشري**: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ

(٦٢) ظ: حسن عزّ الدين بحر العلوم، التعدّدية الدينية في الفكر الإسلامي: ٤٤.

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، أكّدت الآية المباركة الجعل الإلهي التكويني لتنوّع البشر بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾، ومن ثمّ حدّدت الآية المباركة المسوّغ لهذا الجعل، لأنّ «الاختلاف المترائي في الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنّما هو للتوصّل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتمّ ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعرّف فهذا هو غرض الخلقة من الاختلاف المجعول»[٦٣] إذ يُعدّ ذلك اعترافاً للتنوّع البشري؛ بل أساساً لوجود الآخر بوصفه حقيقةً ثابتةً يلزم تعارف الإنسان على الآخرين من أفراد جنسه.

٧. **الجعل التشريعي وحقيقة تعدّد الشرائع**: لقد أقرّت آية الهيمنة تعدّد الشرائع على طول زمن الوحي الإلهي وصدّقت نزولها لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ... لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾، فعلى الرغم من أنّ آية الهيمنة تدلّ على نسخ القرآن لبقيّة الكتب، بيد أنّها أقرّت تنوّع التشريعات الدينية ومنهاجها على مرّ تاريخ الوحي بمقتضى دلالة الآية، وأنّ بقاء بعضهم على سُنن الشرائع السابقة لا يعني رفض عقائد الآخر جملةً وتفصيلاً -على الرغم من أنّ البقاء على تلك الشرائع يُعدّ من قبيل الضلال -لأنّنا نعتقد بتضمّن تلك الكتب والشرائع بعضاً من الوحي ولو إجمالاً، ممّا يلزم احترامها واحترام معتنقيها وقبولهم، ولا سيّما أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٨٢]، فالشرائع الإلهية الأُخر التي سبقت شريعة الإسلام تملك من الحقّ شيئاً يلزم احترامه.

(٦٣) الميزان، الطباطبائي: ١٨/ ٣٣٠.

وسائل تفعيل قبول الآخر:

لقد بيّنا أنّ الشريعة الإسلامية قد انفردت عن بقيّة الرسالات الأُخر باعترافها بالآخر من خلال وضع أدوات وآليات لقبوله منها ما يأتي:

١. **التعارف**: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، بغضّ النظر عن الجعل الإلهي التكويني الذي أشارت إليه الآية إذ عدّ أساساً لقبول الآخر فالآية حدّدت مبدأً سلوكياً لتفعيل التعايش مع الآخر لقوله تعالى: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ فإنّها تعترف ضمناً بوجود الآخر فضلاً عن الانفتاح عليه؛ بل انفتاح الأُمم بعضها على بعض بحكم أنّ التعارف هو «حقيقة موضوعية، تنتج عن التنوّع، ولولا التنوّع لانتفى التعارف فلا قيمة له، ولا وجود إلّا مع هذا الجعل التكويني»[٦٤]، فتكون دلالة التعارف هو الانفتاح والتواصل ومن ثمّ ينتهي ذلك إلى الوئام والتعايش بين البشر لتحقيق مراد الله تعالى بحكم أنّ المسوّغ من الجعل التكويني الإلهي في أن يكون البشر ﴿ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ ﴾ التعارف.

٢. **تطبيق أدبيات المنظومة القيمية**: للمنظومة القيمية الإسلامية والأخلاقية آداب وفنون، إذ عدّت تلك الآداب مناطاً لقبول الآخر والتعايش معه، فباتت الآداب مصداقاً لتلك القيم تعمل على ترويض الإنسان على حبّ البشر عامّةً من دون النظر إلى معتقده بلحاظ الاشتراك في الجنس، يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لمالك الأشتر حينما أرسله عاملاً على مصر فقال له فيما أوصاه به: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم واللطف بهم ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أُكلهم فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير

(٦٤) حسن عزّ الدين بحر العلوم، التعدّدية الدينية في الفكر الإسلامي: ٣٧.

لك في الخلق»[٦٥].

٣. **الانفتاح الإيجابي**: لا شكّ في أنّ من أولويات قبول الآخر الانفتاح عليه انفتاحاً منضبطاً على وفق الضوابط والمعايير الإسلامية، إذ يعدّ التعامل الإيجابي سبيلاً إلى نقل الآخر من جهة الضلال والعداوة إلى جهة الحقّ والولاية الحميمية، بيد أنّ إباحة التواصل لا يعني إباحة الموالاة[٦٦]، ومن هنا أشرنا إلى أن يكون الانفتاح منضبطاً يحقّق الخصيصة الإسلامية من جهة وينفتح على الآخر بما يحترم خصيصة الآخر، ليكون كلّ ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

٤. **الحوار**: من الطبيعي أن تحفل المنظومة الإسلامية بالكثير من المفاهيم والتعاليم المرتبطة بأساليب الحوار، لذا اعتمدت شريعة الإسلام على منهجية الدعوة بالمنطق والحوار الهادئ[٦٧]، ومن جنس ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]، فالآية المباركة تؤكّد أهميّة المناقشات المنطقية بوصفها حواراً بين أطراف متنوّعة أو مختلفة في الرأي، إذ الحوار أحد الأساليب والطرائق الصحيحة والمناسبة للتباحث وتقارب وجهات النظر أجمع[٦٨]، التي تؤول بأطرافه إلى التفاهم والانسجام وقبول كلّ واحد منهما الآخر.

٥. **البحث عن المشتركات**: هناك الكثير من المشتركات بين الشريعة الإسلامية والآخر من أهل الكتاب، ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم لهم لحصر تلك المشتركات

(٦٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٤٢٧/ صبحي الصالح.

(٦٦) ظ: محمّد حسين علي الصغير، فقه الحضارة: ١٧٣، نمر النمر، الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر: بحث، مجلّة الصائر، موقع الكتروني

(٦٧) ظ: حسن بن موسى الصفّار، الحوار والانفتاح على الآخر: ٦٦.

(٦٨) ظ: مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٠/ ٧٥.

والعمل على جعلها سبيلاً للتفاهم والانسجام وقبول الآخر، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، فالمتأمّل في الآية المباركة يجد دعوة القرآن صادقة لقبول الآخر والتعايش معه بالبحث عن أكبر قدر من المشتركات من جهة لقوله ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قبال ردم هوّة المتباينات من جهة أُخرى لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ولم ينحصر الخطاب القرآني على تأكيد البحث عن المشتركات فحسب؛ بل أراد أن يؤكّد هذه الدعوة الصادقة -أي قبول الآخر -بمحاورة الآخر ولو عزفوا عنه قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

٦. **الدعوة إلى السلم**[٦٩]: دعت الشريعة الإسلامية عبر القرآن الكريم إلى السلم لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٨]، وقوله كذلك: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأنفال: ٦١]، كما دعت إلى إطفاء نار الفتن، وتجفيف مستنقعات التوتر؛ وذلك عبر إظهار الأمن والسلام مع البشرية جمعاء، ولا سيّما إذا تفهّمَ الآخرُ مقصدَ الشريعةِ الإسلامية من الدعوة إلى السلام وتعاملوا بالروحية نفسها، بهذا لزم برّ الآخر والعدل معه، بنصّ القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة: ٨]، إذ لا بدّ من أن يُبَرَ كلّ إنسان يحافظ على روح الإنسانية

(٦٩) ظ: نمر النمر، الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر: بحث، مجلّة الصائر، موقع الكتروني.

بالتزام السلام بغية العيش مع الآخر بأمن وأمان.

٧. منظومة الأحكام الشرعية: للإسلام منظومة شرعية من النظم الاجتماعية كافّة تقوم على تنظيم علاقة المسلم من جهة والمسلم والآخر من جهة أُخرى، وتعود مرجعية هذه النظم إلى رؤية كونية إلهية تعطي الآخر كما تعطي للمسلم حقوقاً وواجباتٍ مع ملحظ مقتضاه أمران أحدهما خصيصة الهوية الإسلامية وحصانتها، والآخر شكل ومستوى النظام الاجتماعي والإداري للمجتمع الإسلامي لتحديد علاقة الآخر بما يترتّب على ذلك من أحكام، ولعلّ (وثيقة المدينة) وأحكام (أهل الذمة) وأحكام أُخر تخصّ انصهار أهل الكتاب بالمجتمع الإسلامي خير دليل على مستوى انفتاح الشريعة الإسلامية عملياً على الآخر.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأنّه لم يكن تفرّد الرسالة الإسلامية في قبول الآخر ادّعاءً محضاً، إذ تفرّدت عن غيرها من الشرائع الأُخر في نظرتها وقبولها (للآخر) في أمرين اثنين هما:

**الأوّل**: أنّ المنظومة الإسلامية بكلّ مكوّناتها خرجت من حيّز التنظير في قبولها للآخر إلى حيّز الفعل من خلال تطبيقات إجرائية لأحكام شرعية مثّلت الرؤية الكونية والعقدية الإسلامية، حتّى أضحت تلك الأحكام الشرعية تمثّل حقيقة أدبيات الذوق الإسلامي وآداب قيمه وأخلاقه، فآلت بعض الأحكام الشرعية أن تقبل الآخر وتحاوره أو تضع أُسس التعايش معه لدرجة الإلزام في الأمر والنهي فضلاً عن الاستحباب والكراهية كما عرضنا بعضاً منها في محورنا هذا.

**الثاني**: يعدّ القرآن الكريم قبول الآخر ضرورة عقدية لابدَّ منها بلحاظ أنّه -أي القرآن -قد صرّح مراراً وتكراراً تصديقه للكتب الإلهية والشرائع السماوية، إذ إنّها قد نزلت لتُمثّل مرحلةً وظرفاً تشريعياً خاصّاً- كان ذلك قبل شريعة الإسلام -وما

آية الهيمنة إلّا إحدى تلك الآيات التي صدَّقَتْ الكتب السماوية الأُخر لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ﴾ بل وصفت باقة آية الهيمنة- كبقيّة آيات النصّ الكريم -التوراةَ والإنجيلَ بالهدى والنور، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

قبال هذين المائزين لشريعة الإسلام بخصوص قبول الآخر نجد الشرائع السماوية الأُخر لا تتوانى عن إلغاء الآخر علانيةً بل عدّت كلّ شريعة نفسها الشريعة السماوية الوحيدة، كما هي حال الشريعة الموسوية التي أنكرت كلّ الأديان والشرائع الأُخر، وكذا هي حال الشريعة المسيحية التي لم تقترن إلّا بالشريعة الموسوية.

ونخلص إلى أن خصيصة الهوية الإسلامية وحصانتها الشرعية والاعتبارية جاءت بمقتضى خصيصة الرسالة الإسلامية نفسها بحكم الجعل التشريعي الإلهي لها، فضلاً عن خصيصة رسولهاﷺ إذ اتّسم بخصال ميّزته عن غيره من الأنبياء والرسلعليهم السلام، وهذه النتيجة نجدها مطّردةً مع حقيقة مرتبة الإنسان وعلوّه على وفق الرؤية الإسلامية بمقتضى الجعل التكويني الإلهي له موازنة بالموجودات الأُخر، وبلحاظ هذه المرتبة التشريفية لجنس الإنسان كانت رؤية الإسلام للآخر رؤيةً مختلفةً تجسّدت في الجانب النظري والعملي، إذ يمكن عدّ إكبار الإنسان دليلاً على هيمنة الرسالة الإسلامية لتضمّنها لمضامين عالية لم يدركها الإنسان إلّا بعد حين ومنها احترام الآخر وقبوله ولزوم التعايش معه.

بيد أنّ مكانة الإنسان عامّةً لم تضعف من خصيصة المسلم وحصانته ولا من خصيصة هيمنة الهوية الإسلامية إطلاقاً، بحكم أنّ مرجع هذه الخصيصة ومصدرها شريعة سماوية مهيمنة، وكذا ستجري هذه الهيمنة على معتنقيها موازنةً بغيرهم بالمآل.

## أهم المصادر والمراجع


القرآن الكريم.

- الجرجاني، علي بن محمّد بن علي، كتاب التعريفات، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (ت بعد ١١٥٨هـ)، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، نقل النصّ الفارسي إلى العربية: عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- الموسوعة الفلسفية العربية: معهد إنماء العربي، بيروت، ١٩٩٥م.
- خليل نوري العاني، الهوية الاسلامية في زمن العولمة، مركز البحوث والدراسات الاسلامية -العراق، الطبعة الاولى ٢٠٠٩.
- شريف محمّد جابر، الهوية والشرعية دراسة في التأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية.
- ستّار جبر حمود الأعرجي، الوحي ودلالته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط١/ ١٤١٧هـ-٢ ١٩٩٧، بيروت لبنان.
- أبو القاسم الموسوي الخوئي، البيان في تفسير القرآن، منشورات: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط٣/ ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، بيروت لبنان.
- احمد عزت راجح، لصول علم النفس، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، ط٨/ ١٩٧٠م، الإسكندرية -مصر.
- أبو بكر البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي

الخراساني، (المتوفى: ٤٥٨هـ)، دلائل النبوة، المحقق: عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى-١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

- المقريزي، إمتاع الأسماع (ت ٨٤٥)، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، ط١، سنة الطبع: ١٤٢٠-١٩٩٩ م.
- كارم السيد غنيم، الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، دار الفكر العربي، القاهرة/ ط١/ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حميد النجدي، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامّة في أُصول التدبّر القرآني، دار الضياء، النجف الأشرف، ١٤٢٤هـ، الطبعة الأُولى العياشي، تفسير العياشي: ٢/ ٣٣٧.
- محمّد صادق الصدر، منّة المنّان في الدفاع عن القرآن، مطبعة الكوثر، الطبعة الأُولى، ١٤٣٢هـ -٢٠١١م، الناشر المحبّين للطباعة والنشر.
- محمّد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، دار القلم، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، نيسان -ابريل ١٩٧٣.
- رسالة الطلب والإرادة: الخميني/ ترجمة وشرح سيد احمد الفهري، مركز اتشارات علمي فرهنكي النشر العلمي والثقافي.
- مرتضى مطهّري، الإنسان والإيمان، مؤسسة الثقلين، رابطة أهل البيت الإسلامية العالمية، ط١/ سوريا دمشق.
- كمال، الفلسفة شرح كتاب الأسفار الأربعة الإلهيات بالمعنى الأعمّ، دار فراقد، الطبعة الأُولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمّد الشيرازي، تفسير البيضاوي، مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأُولى، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
- أبو اليسر رشيد كهوش: بحث

من ضمن البحوث التي أُلقيت في مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع ٢/ ١٢/ ٢٠١٣م.

- البجنوردي (ت: ١٣٩٥هـ)، القواعد الفقهية، تحقيق: مهدي المهريزي-محمد حسين الدرايتي، الناشر: نشر الهادي -قم -ايران، المطبعة: الهادي، ط١/ سنة الطبع: ١٤١٩ -١٣٧٧ ش.
- محمد باقر الصدر، ومضات، الناشر دار الصدر (مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر)، الطبعة الأُولى، المطبعة شريعت -قم المقدّسة، ١٤٢٩هـ.
- الطوسي (ت ٥٤٨هـ)، المؤتلف من المختلف بين أئمّة السلف: تحقيق: حققه وقابله جمع من الأساتذة وراجعه السيد مهدي الرجائي، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، المطبعة: مطبعة سيد الشهداءعليه السلام، ط١: ١٤١٠/ إيران، مشهد.
- ابن إدريس الحلي (ت: ٥٩٨)، السرائر، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، المطبعة: مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، ط٢: ١٤١١هـ.
- الجواهري (ت: ١٢٦٦هـ)، جواهر الكلام، تحقيق وتعليق وإشراف: الشيخ علي الآخوندي، الناشر: دار الكتب الإسلامية -طهران، المطبعة: حيدري، ط٧/ سنة الطبع: ١٣٦٨ ش.
- فاضل الصفّار، فقه العلو والارتقاء (بحث علمي يعالج الهيمنة الاستعمارية على بلاد المسلمين)، دار صادق للطباعة والنشر، العراق-كربلاء، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ.
- الگلپايگاني (ت: ١٤١٤هـ)، نتائج الأفكار، الناشر: دار القرآن الكريم-قم المقدسة، المطبعة: أمير، ط١ الطبعة: محرم الحرام ١٤١٣هـ.
- محمد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسرة، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية -قم المقدسة، الطبعة الاولى ١٤١٥هـ.